كلمة الدكتور نضال الصالح
رئيس اتحاد الكتّاب العرب

السيدات.. السادة..

شرفٌ لي أن أقف هنا.. والآن.. أمام قامات معرفية عالية.. وفي هذا الصرح العلميّ العالي، لأتحدّث عن قامة إنسانية وثقافية عالية، عن الراحل العزيز الأستاذ شحادة الخوري الذي نجتمع اليوم في ذكرى مرور سنة على رحيله عن هذه الفانية، والذي كان له غيرُ يد بيضاء على غير شأن يخصّ الفكر والأدب والترجمة، بل على الثقافة عامة، والعربية خاصة.

قبل ما يزيد على ثلاثة عقود كنت طالباً في مرحلة الدراسات العليا في جامعة حلب، وكما اعتدت قبل ذلك وكما سأبقى، لم أكن أدع كتاباً يعني الاختصاص الذي عقدتُ العزم عليه، النقد الأدبيّ الحديث، إلا سعيتُ إليه مهما يكن من أمر المسافة التي تفصلني عن مكان وجوده، والتعب الذي يمكن أن أكابده في سبيل الوصول إليه.

كان كتاب الأستاذ الخوري: "الأدب في الميدان"، الصادر سنة ألف وتسعمئة وخمسين، أحد الكتب التي بذلت جهداً، بل جهوداً مضنية في البحث عنه بعد أن وقعتُ على غير إشارة إليه في غير كتاب ممّا أرّخ للنقد الأدبي العربي الحديث، حتى عثرت على نسخة منه لدى أحد باعة كتب الأرصفة في دمشق التي كنت مضيتُ إليها آنذاك، أعني قبل ما يزيد على ثلاثة عقود، للمشاركة في احتفالية ثقافية كانت وزارة الثقافة تفضلت بدعوتي إليها. لم تكد عيناي تقع على الكتاب مرهقاً بالتعب بين سواه من الكتب الأخرى، حتى وجدتني أهتف بصوت لا يسمعه سواي: "هو ذا أخيراً"،

وعلى الرغم من أنّ البائع ظنّ أنه عثر على صيد ثمين ذلك النهار، فطلب خمس ليرات ثمناً للكتاب، فإنني لم أتردد في دفعها إليه من دون أخذ وردّ، كما لم أنتظر طويلاً لأهرع إلى أقرب مقهى، فأبدأ تقليب صفحات الكتاب، وأنا أحسد نفسي على "ضالّة" التقطتها أخيراً.

لم يكن حجم الكتاب يزيد على بضع عشرات من الصفحات من القطع المتوسط، لكنّ البحوث الثلاثة التي احتواها كانت بحجم محيط من المعرفة، بل من الرؤى المبكرة في وعي الأدب، ووظيفته، ورسالته، ولاسيما صلة ذلك الوعي بمفهوم الواقعية الاشتراكية وبالجذر الفلسفي لهذه الأخيرة، أي المادية الجدلية. من صفحة إلى صفحة كنت ألهث وراء ما تضمّن الكتاب من أطروحات ومقولات جديدة نسبياً، آنذاك، فيما يعني الأدب، ولاسيما تعريف الخوري له بأنه: "فنّ يكشف حقائق الكون والإنسان، ومرآة للحياة تعكس أحداث الطبيعة والمجتمع"، ولاسيما أيضاً مسارعة الخوري إلى القول: "لكنّ هذه المرآة يلزم ألا تكون منفعلة بل فاعلة"، ولاسيما عدّه الأدب "وسيلة من وسائل البناء والنهوض الاجتماعيّ، شريطة أن تتصل جذوره بالحياة، بالأرض والعاملين في الأرض، وتتجه فروعه نحو بناء حياة فضلى، ينال الناس منها حظاً أوفر من النفع والحرية والسعادة"، ولاسيما ثالثاً تقدّمه على أبناء جيله في الإشارة إلى أنّ الأدب جهد فكريّ مرتبط بالضرورة مع الحاجات المادية والاجتماعية، ثم في نفيه مفهوم الحياد في أي جهد فكريّ. وجدتُ في الكتاب زاداً ثريًّا في غير شأن يعني وعيي بالأدب، ولاسيما أنني كنت أقرزم آنذاك بكتابة القصة القصيرة، ثمّ وعيي بالنقد الأدبيّ وقد كنت أحضّر بحثي لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا، وفي الحقلين معاً، الأدب ونقده، قدّم الكتاب إليّ غنًى معرفيًّا فيما يعني علاقة الأدب بالواقع من جهة، وفيما يعني استبصار تلك العلاقة في الممارسة النقدية من جهة ثانية.

ومن أسف أنّ الراحل العزيز لم يعد، فيما أنجز من مؤلفات فيما بعد، إلى هذا الحقل المعرفيّ، الأدب ونقده، سوى ما قدّمه على استحياء واضح في القسم الأول من كتابه: "فصول في الأدب والإجماع والتربية والثقافة والحياة العامة" الذي صدر بعد نحو ست سنوات من صدور "الأدب في الميدان"، ولو كان فعل، ولو كان ترجم أطروحاته النظرية التي قدّمها في الكتابين إلى تطبيقات نقدية، لكان أحد أبرز أعلام النقد الأدبيّ العربيّ الحديث، ولاسيما في تلك المرحلة من عقد الخمسينيات وما تلاه، التي كانت تمور بتيارات فكرية وثقافية تتضاد فيما بينها أحياناً، وتتصادى أحياناً ثانية.

السيدات.. السادة..

لعلّه من نافل القول إنّ قيمة الرجل الذي نحن في حضرته اليوم لا تكمن فيما قدّم إلى المكتبة العربية من مؤلفات فحسب، بل، أيضاً، في الدور الذي نهض به في التأسيس لغير مؤسسة ثقافية سورية وعربية، ومن ذلك مشاركته، مع قامات أدبية سورية عالية، سنة خمسين وتسعمئة وألف، في تأسيس رابطة الكتّاب السوريين التي جهرت بنفسها سنة أربع وخمسين وتسعمئة وألف عندما عقدت مؤتمرها الأول بحضور عدد من الأدباء السوريين واللبنانيين والمصريين والعراقيين والأردنيين، ثم في مشاركته في التأسيس لاتحاد الكتّاب العرب، سنة تسع وستين وتسعمئة وألف، الذي أتشرّف برئاسته الآن. وليس من نافل القول، وبالنسبة إليّ شخصياً، أنّ لمدينتي حلب حصّة، وأيّ حصّة! من شحادة الخوري، فقد احتضنته نهاية الأربعينيات مدرّساً فيها، وفاعلاً في حراكها الثقافيّ، ولطالما سمعت من غير أديب وكاتب وباحث من أبناء حلب ممّن عرفه عن قرب الكثير من الخصال الحميدة التي كان يتمتع بها، إنساناً وباحثاً ومدرّساً، ولطالما، أيضاً، أكّد لي هؤلاء أنّه كان شديد الإيثار للعزلة لأنّه كان

يؤثر استثمار ليله ونهاره في القراءة والكتابة، وليترف خزّانه المعرفيّ بالمزيد والمزيد ممّا أنجز سابقوه من الباحثين والمترجمين في غير مجال، وممّا يمكّن الكلمة التي يكتب من أن تكون ابنة المعرفة من مظّانها، لا ابنة المشافهة.

وبعد، فيا أيها المثقف بحقّ، وأنت ترفل الآن في سرير الأبد، ومهما يكن من أمر الموت، فستظلّ بيننا حيًّا.. وحيًّا.. وحيًّا.

والسلام عليكم.